عَمَلِي فِي الكِتَاب

قلت: إن كتاب (إغاثة اللهفان) يتضمن في القسم الأول منه ما يعد الأساس والعمود الفقري في بناء الموضوع، ولذا يحسن أن نتوقف قليلاً، للحديث عن هذا الكتاب.

قسم المؤلف كتابه (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) إلى ثلاثة عشر باباً، وجعل الباب (الثالث عشر) للحديث عن مصايد الشيطان، ويستأثر هذا الباب ـ وهو موضوع الكتاب ـ بثلاثة أرباع الكتاب، الذي يقع في مجلدين.

وأما بقية الأبواب، فموضوعها جميعاً هو: طب القلوب، وتحتل من مساحة الكتاب الربع الأول منه، وهي في مجموعها تعد مقدمة وتمهيداً للكتاب، حيث يتحدث المؤلف فيها عن الميدان الذي يحوم حوله الشيطان، وهو القلب.

ولو أفرد هذا القسم من الكتاب ـ بطباعته مستقلاً ـ تحت عنوان (طب القلوب) لكان جديراً بأن يكون وافياً بالغرض. تماماً كما حدث ذلك في كتاب (الطب النبوي) الذي هو في الأصل جزء من كتاب (زاد المعاد).

ولعل السبب في عدم حصول ذلك هو أن عنوان الكتاب (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) لا يوحي بوجود هذا البحث فيه، ولا يستشف منه ذلك، وهكذا غابت مادة (القلب ومايتعلق به) تحت وهج ذلك العنوان، وساعد على غيابها ما عرف به المؤلف من استطراداته الطويلة، التي تزيد أحياناً على مائة صفحة، كما هو الشأن في أول الجزء الثاني من هذا الكتاب، فربما ظن القارئ أن هذا القسم كذلك.

وقد جاء ترتيب هذه الأبواب، حسب وضع المؤلف كالتالي:

الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت.

الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب.

الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية.

الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركاً للحق مريداً له مؤثراً له على غيره.

الباب السادس: في أنه لاسعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلـٰهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

الباب السابع: في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

الباب الثامن: في زكاة القلب.

الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه.

الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته.

الباب الحادي عشر: في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه.

الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان.

أما عملي في الكتاب:

فيمكن إجماله في الأمور الآتية:

١ ـ ترتيب مادة الموضوع:

سبق قبل هذه الفقرة ذكر ترتيب الأبواب التي تناول فيها المؤلف عرض الموضوع.

والملاحظ أن هذا الترتيب لم يكن مقصوداً، بل جاء بشكل تلقائي، يدلنا على ذلك، ما جاء في الباب الثامن من الحديث عن زكاة القلب، وبعده في الباب التاسع الحديث عن طهارة القلب، ثم يقرر أن الزكاة إنما تكون بعد الطهارة، فلو كان الترتيب مطلوباً لقدم باب الطهارة على باب الزكاة.

وعندما يكون الغرض إخراج هذا الموضوع في كتاب مستقل، فلا بد من وضع هيكل للبحث تقرر فيه عناصر الموضوع. . . بحسب أولوياتها. وهذا ما تم إنجازه. ويحسن بي أن أشير إلى بعض التعديلات التي طرأت على ترتيب المؤلف.

- جاء تقسيم القلوب إلى صحيح وسقيم وميت في الباب الأول، وجاء الحديث عن علامات مرض القلب وصحته في الباب العاشر. فكان المناسب أن يكون في الباب الثاني.

- وجاء الحديث عن أدوية القلب الطبيعية والشرعية في الباب الثالث، بينما جاء الحديث عن أن القرآن متضمن لجميع أدوية القلب في الباب السابع، وحق هذين البابين أن يكونا متجاورين.

- وجاء الحديث عن سعادة القلب في الباب السادس، وحق هذا الموضوع أن يكون الباب الأخير وبه يختم الكتاب.

ومن جانب آخر جاءت بعض الموضوعات في أكثر من باب، فكان من المستحسن جمعها في باب واحد، فالحديث عن القلب الحي جاء في بابين، والحديث عن الأدوية جاء في بابين. . .

وفي المقابل جمع المؤلف في الباب الأول موضوعين، فكان من

المستحسن وضع الثاني منهما في المكان المناسب. فكان الباب السادس محلاً له[1].

٢ ـ استكمال مادة الموضوع من الكتب الأخرى للمؤلف:

تعرض المؤلف إلى الحديث عن هذا الموضوع في كثير من كتبه الأخرى، وبعد استعراض ما كتبه في ذلك تمكنت من الاستفادة من الكتب التالية: (مدارج السالكين)، (مفتاح دار السعادة)، (بدائع الفوائد)، (الفوائد)، (الجواب الكافي). وتم إضافة الفصول والفقرات التالية:

- الفصل الثاني في الباب الثاني.
- الفصل الثاني في الباب الخامس.
- الفصل الثاني في الباب السادس.
- الفقرة الأولى في الباب الأول.
- مقدمة الفصل الأول من الباب الخامس.
- وفقرات أخرى...

وقد أشرت إلى مرجع كل فصل أو فقرة أضيفت إلى البحث.

٣ ـ الاستطرادات:

عرف ابن القيم ـ رحمه الله ـ بأسلوبه الجميل، مما أتاح له أن يأخذ بيد القارئ حيثما أراد، كما عرف باستطراداته التناسبية، التي تطول تارة، وتقصر أخرى، الأمر الذي ربما أضاع على القارئ ترابط الموضوع في بعض الأحيان.

---

(١) وبعد هذه التعديلات أصبحت الأبواب حسب ترتيبها بالشكل التالي: [١، ١٠، ٢، ١١، ١٢، (٤+٥)، (٣+٧)، ٩، ٨، ٦].

وقد جعلت هـذه الاستطرادات[1] في الحاشـية إذا كانـت ضمن البحث، وأبقيتها في مكانها إذا كانت في آخر الفصل. مع الإشارة إلى أنها استطراد. وبهذا نوفر الوقت على القارئ، ونبقي على الفائدة المرجوة من الاستطراد.

٤ ـ ما يتعلق بالشكل:

تم تقسيم الفصول إلى فقرات، ووضعت لها عناوين فرعية، الأمـر الذي يساعد على فهم أسرع، وتصور كلي للموضوع محل البحث.

وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع بعض حقه.

* * *

(١) المقصود الاستطرادات الواردة في المادة المأخوذة من كتاب (إغاثة اللهفان).